انتقاءات: أثر الشعر - نماذج وهمم
من كتاب

فقه المروءات

تأليف

أ.د. محمد بن إبراهيم الحمد

دار ابن الجوزي

فقه المروءات

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٧هـ

الحمد، محمد إبراهيم

فقه المروءات. / محمد إبراهيم الحمد - ط١. .- الدمام، ١٤٤٧هـ.

٤٣١ ص، ١٧×٢٤سم

رقم الإيداع: ١٤٤٧/٢٨٨

ردمك: ٣ ـ ١١ ـ ٨٥٢١ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ

٢٠٢٥ ميلادية

الباركود الدولي: 9786038521113

حقوق الطبع محفوظة ©١٤٤٧هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣

٠١٣٨٤١٢١٠٠

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٠١٠٠٦٣

جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر - القاهرة:

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣

٠١١١٢٤٥٨٤٤٤ - ٠١٢٨١٩١٤٠٠١

aljawzi@hotmail.com

+966503897671

aljawzi

eljawzi

ibnaljawzi.com

٥ ـ مواقف الصحابة من الشعر

لقد كان للصحابة وقفات، واستشهادات بالشعر، **ومن ذلك**: أن أبا بكر ﷺ كان كثيرًا ما ينشد:

إذا أردت شريف الناس كلِّهم ... فانظر إلىٰ مَلِكٍ في زيِّ مسكين
ذاك الذي حَسُنت في الناس قالَتُه ... وذاك يصلح للدنيا وللدين

أما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فلقد كان نَقَّادة بصيرًا بالشعر، وله فيه الآراء الفاحصة، والنظرات الثاقبة، والأحكام الصائبة.

قال محمد بن سلام عن بعض أشياخه قال: «كان عمر بن الخطاب ﷺ لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر».

وكان ﷺ يُعْجَبُ بزهير، ويفضله علىٰ غيره، وكان يتمثل بقوله:

فإن الحق مقطعه ثلاثٌ ... يمين أو نفارٌ أو جلاء

يريد: ثلاث خصال؛ **فمنها** نفار: أي تنافرٌ إلىٰ رجل يتبيَّن حجج الخصوم، ويحكم بينهم، **ومنها** يمين، **ومنها** جلاء: وهو أن ينكشف الأمر، ويتجلىٰ، فَتُعْلَمَ حقيقته، فَيُقْضَىٰ به لصاحبه دون خصام ولا يمين.

فكان عمر ﷺ يتعجب من معرفته بمقاطع الحقوق ـ كما يقول النويري ـ.

وقال ابن هشام رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما سمع عمر ﷺ قول زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاثٌ ... يمين أو نفارٌ أو جلاء

قال: لو أدركته لولَّيته القضاء؛ لمعرفته ما تثبت به الحقوق».

قال ابن رشيق القيرواني: «وسمِّي زهير قاضيَ الشعراء بهذا البيت».

قال ابن قتيبة: «وأصحاب الفقه والحكام يرون مقاطع الحقوق في ثلاث: يمين، أو محاكمة، أو حجة، وقد جمع ذلك زهير في قوله:

فإن الحق مقطعه ثلاثٌ ... يمين أو نفارٌ أو جلاء

وأنشد عمر ﷺ هذا البيت؛ فجعل يعجب من معرفته بمقاطع الحقوق».

وقال ابن قتيبة: «وأنشد عمر لعَبْدَةَ بن الطبيب:

..... والعيش شحٌّ وإشفاقٌ وتأميل

فجعل يكرره، ويُعَجِّبهم من حُسْن ما قسَّم، وفصَّل».

٦ ـ نماذج لمن أَثَّر الشعر في مروءاتهم، وأعمالهم

هذا باب واسع لا يكاد يُحْصَر، أو يحصىٰ، فهذا معاوية رضي الله عنه ـ علىٰ سبيل المثال ـ يقول: «ما ثبتني في أحد المعارك إلا تذكري لقول عمرو بن الإطنابة:

أبت لي هِمَّتِي وأبىٰ بِلائي ... وأخذي الحمدَ بالثمن الربيح
وإقدامي علىٰ المكروه نفسي ... وضربي هامةَ البطلِ المُشيح
وقولي كلما جَشَأَتْ وجاشَتْ ... مكانك تحمدي أو تستريحي

وكذلك المأمون لما خرج لغزو خرجت له جارية بارعة الجمال تريد أن تثنيه؛ فتذكر بيتًا للأخطل:

قومٌ إذا حاربوا شدوا مآزرهم ... عن النساء ولو باتت بأطهار

فتركها وذهب للغزو.

وكذلك يذكر صاحب الأغاني ويذكر ـ أيضًا ـ ابن خلكان في روايتين عنهما عن ابن جريج تلميذ عطاء بن أبي رباح، وعطاء تلميذ ابن عباس، يقول: «كنت في اليمن وما كانت لي نيةٌ في الحج».

وإحدىٰ الروايتين تقول: «إنه خطر في بالي هذان البيتان»، والأخرىٰ تقول: «إنه سمع منشدًا يرفع عقيرته بهذين البيتين».

يقول: «فلما سمع البيتين أحرم بالحج من اليمن، وهما لعمر بن أبي ربيعة».

يقول ابن جريج: «ما ظننت أن ينفع الله بشعر عمر بن أبي ربيعة».

والبيتان هما قوله:

بالله قولي له في غير معتبةٍ ... ماذا أردت بطول المكث في اليمن
إن كنت حاولت دنيا أو نَعِمْتَ بها ... فما وجدت بترك الحج من ثمن

يقول: «فأحرمت بالحج من اليمن بسبب هذين البيتين».

قال لي أحد الأصدقاء الأدباء من أساتذة جامعة الكويت: «كنت نويت الرحلة إلىٰ البوسنة مع أهلي في مهمة، فقرأت هذين البيتين؛ فوجهت وجهي شطر البيت الحرام في تلك السنة، وتركت رحلتي إلىٰ البوسنة، ولما كنت في منىٰ لرمي الجمار دعوت لعمر بن أبي ربيعة».

ويقول الدكتور عبد الوهاب عزام في الشوارد: «صلىٰ بجانبي رجل، ولم يؤدِّ السنة الراتبة، فقلت له: إن صاحبك المتنبي يقول:

ولم أرَ في عيوب الناس شيئًا كنقص القادرين علىٰ التمام».

يقول: «فقابلته بعد مدة قال: ما تركت السُّنة بعد ذلك اليوم».

بل إن من كرام الناس وأشرافهم مَنْ إذا مدحوا في الشعر أَبَتْ لهم هِمَمُهم أن يكونوا دون ما مدحوا به؛ **فمن ذلك**: ما حكي أن هارون الرشيد لما سمع قول الشاعر:

تراه في الأمْنِ في دِرْعٍ مُضاعفةٍ لا يأمن الدهرَ أن يُدعىٰ علىٰ عَجَلِ

سأل عنه وعمن قيل فيه، فقيل له: «لمسلم بن الوليد الشاعر في قائد جيوشك يزيد بن مزيد الشيباني». وكان يزيد هذا يقول للرشيد: «والله يا أمير المؤمنين، لأحرصن علىٰ أن لا أكذب شعرائي فيما يمدحونني به».

فأمر الرشيد بإحضار يزيد علىٰ الحالة التي يُصادَف عليها، فأحضروه وعليه ثياب خلوته مُلَوَّنة، فلما نظر إليه الرشيد في تلك الحالة، قال: «أكذبت شاعرك يا يزيد!» قال: «فيم يا أمير المؤمنين؟» قال: «في قوله:

تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمنُ الدهرَ أن يُدعىٰ علىٰ عجل».

فقال يزيد: «لا والله يا أمير المؤمنين ما أكذبته، وإن الدرع عليَّ ما فارقتني»، وكشف ثيابه، وإذا عليه درع مظاهرة.

٧ ـ حال العلماء مع الشعر

أما حال العلماء مع الشعر، والاستشهاد به فكثير جدًّا؛ إذ كثيرٌ من العلماء شعراء، ولو أتينا إلىٰ علماء الصحابة لوجدنا أن منهم من يقول الشعر؛ فابن عباس رضي الله عنهما يروىٰ له شيءٌ من الشعر، وكذلك علي رضي الله عنه.

وكذلك الأئمة كالإمام الشافعي، وابن نصر المالكي، وابن دريد صاحب المقصورة، والإمام ابن فارس صاحب التصانيف البديعة له شعر تربوي جميل، وغير أولئك كثير ممن كانوا يحبون الشعر، ويستشهدون به.

وعلماء الأندلس كانوا يُجلّون من يحفظ شعر ابن زيدون خصوصًا قصيدته «أضحىٰ التنائي».

والإمام الشوكاني له ديوان اسمه «أسلاك الجوهر»، وكذلك من المعاصرين الشيخ محمد الخضر حسين له ديوان اسمه «خواطر الحياة» وفيه الكثير من الحكم والمقطوعات الجميلة التي تتكلم عن المروءات، وتشيد بها، ومن ذلك قوله في أبيات جميلة لما ذهب إلىٰ دمشق سنة ١٣٣١ وكان في القطار قال فيها:

لجَّ القطارُ بنا والنار تسحبه ... ما بين رائق جناتٍ وأنهار

ومن عجائب ما تدريه في سفرٍ ... قوم يقادون للجنات بالنارِ

وكذلك كان بينه وبين صديقه العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور مراسلات شعرية، ومنها أن ابن عاشور كان في حلقة تدريسه في الزيتونة، وأتاه بعض علماء المغرب، وأراد أن يحضر الشيخ الخضر، فبعث إليه ببيتين في ورقة، وهما:

تألقت الآداب كالبدر في السَّحَرْ ... وقد قذف البحران موجُهما الدررْ

فمالي أرىٰ مِنْطِيقَها اليوم غائبًا ... وفي مجمع البحرين لا يفقد الخَضِرْ

وانظر لهذه التورية الجميلة في البيت الأخير.

٨ ـ أثر الشعر في علو الهمة

العلماء ـ أحيانًا ـ يحركون الناس بالشعر، ويُعَزُّون أنفسهم بالشعر، ويُرَقُّون همهم بالشعر، يذكر الصفدي أن ابن تيمية كان كثيرًا ما يردد بيت أبي تمام:

من لم يُقَد فيطير في خيشومه ... رَهَجُ الخميسِ فلن يقود خميسًا

ورهج الخميس: غبار الجيش في المعركة، وكان يقول: إن ابن تيمية يردده كثيرًا ويعجب به.

والمعنىٰ: أن من لم تَقُدْه الرجال فلن يقود الرجال.

وكان ابن تيمية ـ كما يذكر الصفدي ـ يردد كثيرًا قول صُرَّدُر:

تموتُ النفوس بأوصابها ولم ... يدرِ عوَّادها ما بها

وما أنصفت مهجةٌ تشتكي ... أذاها إلىٰ غير أحبابها

وكثير من الناس إذا خمدت هممهم حركوها بالشعر، ولهذا كان الخلفاء يأتون بالشعراء مع الجيوش؛ ليبعثوا فيهم الحماسة.

ومن جميل ما يذكر من ذلك: أن ابن هانئ الأندلسي كان مع أحد الولاة في معركة، والممدوح راكب، وفوارسه حافة به، وقال أمامهم قصيدته المشهورة الرائية، وكان الجيش كله علىٰ ظهور الجياد بما فيهم الملك، والشاعر مسترسل في إلقاء قصيدته، وهم معه بقلوبهم وأفهامهم.

والغريب أنهم يفهمون هذا الكلام، وكأنهم جميعًا قد درسوا الأدب بما فيهم ذلك الملك، ولما وصل ابن هانئ إلىٰ قوله:

مَنْ مِنْكُمُ الملكُ الهمامُ كأنه ... تحت السوابغ تُبَّع في حِميَر

ـ وهذا ما يسمىٰ عند البلاغيين: تجاهل العارف ـ ترجَّل الجيش بكامله؛ تعظيمًا للممدوح، ولم يبق إلا الملك الممدوح؛ فكأنهم قالوا بلسان حالهم: هذا هو الملك.

وهذا جواب ليس له في الأجوبة المكتوبة ولا المنطوقة نظير كما يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

والشعراء كثيرًا ما يبينون أن هذا الأمر مما ينبغي، وأن هذا الأمر مما لا ينبغي، وأن هذا داخلٌ في المكارم، وأن هذا خارجٌ عنها؛ فهم إذا مدحوا فإنما يمدحون بالخصال المعنوية التي يمدح بها الإنسان، وإذا ذموا ذموا بالخصال السيئة؛ فهم لا يذمون المهجو بالكرم، ولا يذمونه بالحلم، وإنما يذمونه بالبخل، وبالجبن، وبإخلاف الموعد، وبالإبطاء بالعطاء؛ لأن بطء العطاء من تنكيده، كما قال البحتري في أحد ممدوحيه:

عجلٌ بالذي تنيل يداه ... إن بطء النوال من تنكيده

وكما قال:

إن الكريم إذا حباك بموعدٍ ... أعطاكه سلسًا بغير مطال

٩ ـ أثر الشعر في تحقيق المطلوب

للشعر أثر في إنجاح الطَّلِبة؛ فقد يكون الإنسان يريد حاجةً؛ فيقدم بين يديها شعرًا، فإذا وقع هذا الشعر موقع القبول نال الإنسان بغيته سواءً لنفسه أو لغيره.

والأمثلة في ذلك كثيرة جدًّا، والمقام لا يتسع لذلك، وإنما يكتفىٰ ههنا **بمثالين:**

المثال الأول: قصة الرشيد مع أشجع السلمي: وخلاصتها ـ كما يقول أبو تمام ـ أن أشجع السلمي كان رديء المنظر، قبيح الوجه، مصابًا بعين.

وكان الرشيد يستثقله من بين الشعراء؛ فدخل عليه يومًا؛ فقال: «يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تأذن لي في إنشادك؛ فإني إن لم أظفر منك ببغيتي هذا اليوم فلن أظفر بها».

قال: «وكيف؟» قال: «لأني مدحتك بشعر لا أطمع من نفسي، ولا من غيري في أجود منه؛ فإن أنا لم أَهُزَّكَ في هذا اليوم فقد حرمت منه إلىٰ آخر الدهر».

فقال: «هات إذًا نسمع».

فأنشده قصيدته الميمية والتي منها قوله:

وعلىٰ عدوِّك يابن عمِّ محمدٍ رَصَدان: ضوءُ الصبحِ والإظلامُ
فإذا تنبَّه رُعْتَهُ وإذا غفا سَلَّت عليه سيوفَكَ الأحلامُ

ولما بلغ هذين البيتين اهتز الرشيد، وارتاح، وقال: «هذا والله المدح الجيد، والمعنىٰ الصحيح».

ثم أنشده قصيدته التي علىٰ الجيم، والتي منها:

مَلِكٌ أبوه وأمُّه من نَبْعَةٍ منها سراجُ الأمةِ الوهاجُ
شَرِبَا بمكةَ من ذرا بطحائها ماءَ النبوة ليس فيه مِزاجُ

فلما سمع الرشيد هذين البيتين كاد يطير ارتياحًا، ثم قال: «يا أشجع دخلت عليَّ وأنت أثقل الناس علىٰ قلبي، وإنك لتخرج من عندي وأنت أحبُّ الناس إليَّ».

فقال: «فما الذي أكسبَني هذه المنزلة؟» قال له: «الغنىٰ؛ فاسأل ما بدا لك» قال: «ألف ألف درهم» قال: «ادفعوها له».

المثال الثاني: قصة الوزير لسان الدين ابن الخطيب.

وخلاصة القصة: ما كان من شأن وزير الأندلس المشهور محمد بن الخطيب السلماني المعروف بلسان الدين ابن الخطيب؛ إذ قال عند سفارته عن سلطان غرناطة محمد بن أبي الحجاج إلىٰ سلطان المغرب أبي عنان فارس المريني أبياته المشهورة التي ارتجلها عند الدخول عليه يستنصره، ويستغيث به علىٰ مقاومة طاغية قشتالة، والتي يقول فيها ـ وهو قائم قبل أن يُسلِّم ـ:

خليفةَ اللهِ ساعدَ القدرُ عُلاك ما لاح في الدُّجىٰ قمر
ليس لنا ملجأٌ نؤمِّله سواك أنت الثِّمال والوَزَرُ
ودافعت عنكَ كفُّ قُدْرَتِه ما ليس يَسْطيع دَفْعَهُ بشرُ
وجهُك في النائبات بَدْرُ دُجَىٰ لَنا وفي المَحْل كَفُّكَ المطر
والناس طُرًّا بأرض أندلس لولاك ما وطَّنوا ولا عمروا
وقد أهمتهم نفوسُهُمُ فوجهوني إليك وانتظروا

ومن به مذْ وصَلْتَ حَبْلَهُمُ ما جحدوا نعمةً وما كَفَروا
وجملةُ الأمرِ أنه وَطَنٌ في غير عليك ما له وطرُ

فاهتز السلطان أبو عنان لهذه الأبيات، وبلغت منه كلَّ مبلغ، وقال لابن الخطيب: ما ترجع إليهم إلا بجميع مطالبهم، وأَذِن له في الجلوس، فسلم عليه، ثم أثقل كاهلهم بالإحسان، وزوَّدهم بكل ما طلبوه.

قال القاضي أبو القاسم الشريف ـ وكان من جملة الوفد ـ: «لم نسمع بسفير قضىٰ سفارته قبل أن يسلِّم علىٰ السلطان إلا هذا».

والحاصل: أن هذه الخصلة تعين علىٰ المروءات، فيجدر بالإنسان خصوصًا طالب العلم أو الداعية أو الكاتب أو الخطيب أن يكون له إلمام بالشعر، وأن يعرف كيف يستشهد به، وكيف يورد الكلام موارده؛ فإذا كان كذلك، وصار يوشِّي كلامه بالشعر، ويلطفه بمثل هذه المقطوعات لا شك أنه سيكون له أبلغ الأثر.

والشعر يضفي علىٰ الكلام الرونق والجمال والروعة؛ فيحسن به أن يُلِمَّ بهذا ولو علىٰ سبيل الإجمال، وأن يعرف وجه الشعر ووجه الاستشهاد حتىٰ لا يقع في اللوم.

وبالجملة فإن الكلام علىٰ الشعر، وارتباطه بالمروءة يطول، ولا يمكن أن يوقف علىٰ جلِّه، وإنما هي إشارات تنبئ عما وراءها.